سورة عبس [1]

أولاً: حول السورة:

السورة تبدأ بقصة ابن أم مكتوم مع النبيﷺ، "وهذا الحادث سبب نزول هذه الآيات من أولها إلى قوله: ﴿بررة﴾ [عبس: ١٦]، وهو ما رواه مالك في «الموطأ» مرسلاً عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال: أنزلت ﴿عبس وتولى﴾ في ابن أم مكتوم[2] جاء إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا محمد استْدنِني، وعند النبي ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل النبي ﷺ يعرض عنه (أي: عن ابن أم مكتوم)، ويُقبل على الآخر، ويقول: يا أبا فلان هل ترى بما أقول بأساً، فيقول: «لا والدِّماء ما أرى بما تقول بأساً»، فأنزلت: ﴿عبس وتولى﴾.

ورواه الترمذي مسنداً عن عروة عن عائشة بقريب من هذا، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وروى الطبري عن ابن عباس: «أن ابن أم مكتوم جاء يستقرىءُ النبي ﷺ آيةً من القرآن، ومثله عن قتادة.

وقال الواحدي وغيره: «كان النبي ﷺ حينئذ يناجي عُتبَة بن ربيعة وأبا جهل، والعباسَ ابن عبد المطلب، وأبيَّ بن خلف، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، والنبي ﷺ يقبل على الوليد بن المغيرة يَعرض عليهم الإِسلام"[3]، وقال البقاعي: "كان النبي صلى الله عليه وسلم حين مجيئه مشتغلاً بدعاء ناس من صناديد قريش إلى الله تعالى ، وقد وجد منهم نوع لين ، فشرع عبد الله رضي الله عنه يسأله وهو لا يعلم

---

(١) ألقيَ هذا الدرس يوم الاثنين الموافق ١٤٢٩/٢/١٨هـ، في جامع الرحمن بتبوك بعد صلاة العشاء.

(٢) "ولا خلاف في أن المراد بـــ {الأعمى} هو ابن أم مكتوم. قيل: اسمه عبد الله وقيل: اسمه عَمْرو، وهو الذي اعتمده في «الإِصابة»، وهو ابن قيس بن زائدة من بني عامر بن لؤي من قريش، وأمه عاتكة، وكنيت أمَّ مكتوم لأن ابنها عبد الله ولد أعمى والأعمى يكنى عنه بمكتوم. ونسب إلى أمه لأنها أشرف بيتاً من بيت أبيه لأن بني مخزوم من أهل بيوتات قريش فوق بني عامر بن لؤي. وهذا كما نسب عَمْرو بن المنذر ملكُ الحِيرة إلى أمه هند بنت الحارث بن عمرو بن حُجر آكِل المُرار زيادة في تشريفه بوراثة الملك من قبل أبيه وأمه،ووقع في «الكشاف»: أن أم مكتوم هي أم أبيه، وقال الطيبي: إنه وهَم، وأسلم قديماً وهاجر إلى المدينة قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم إليها، وتوفي بالقادسية في خلافة عمر بعد سنة أربع عشرة أو خمس عشرة، وفيه نزلت هذه السورة وآيةُ {غيرَ أُولي الضرر} من سورة النساء (٩٥)، وكان النبي يحبّه ويُكرمه وقد استخلفه على المدينة في خروجه إلى الغزوات ثلاث عشرة مرة، وكان مؤذِّنَ النبي هو وبلال بن رباح"التحرير والتنوير.

(٣) التحرير والتنوير – (ج ١٦ / ص ٩٢).

ما هو فيه من الشغل ، يسأله أن يقرئه ويعلمه مما عمله الله، فَكَرِهَ أن يقطع كلامه مع أولئك، خوفاً من أن يفوته منهم ما يرجوه من إسلامهم المستتبع لإسلام ناس كثير من أتباعهم"[1] .

وهذا هو سبب نزول هذه الآيات، أما تحليلها والوقوف على أسرارها فيتضح مما يأتي:

ثانياً: التحليل البياني:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ بتأمل هذه الآية نجد ما يأتي:

١- "افتتاح هذه السورة بفعلين متحملين لضمير لا معاد له في الكلام تشويق لما سيورد بعدهما، والفعلان يشعران بأن المحكي حادث عظيم، فأما الضمائر فيبين إبهامها قولُه: {فأنت له تصدى} [عبس: ٦] وأما الحادث فيتبين من ذكر الأعمى ومَن استغنى"[2].

٢- أن السورة بُدأت بكلمة (عبس) ، وهي تدل على تعبير للوجه، وختمت بما يذكر الوجه ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ{٤٠} تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾، وهذا من تناسب المطلع والختام.

٣- اشتملت الآية على كلمتين ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ صورتا حالة الإعراض، واحدة بدلالة الوجه (عبس)، والأخرى بدلالة الجسد كله، أو صرف الاهتمام (وتولى)، والعبوس: حالة تعتري الوجه، ومظاهرها التقطيب المصحوب بمسحة غضب.

٤- تقدم العبوس على التولي؛ لأنه الحالة الأولى، ويكون التولي بعده.

٥- عدم ذكر الفاعل من قبل مع أنه معروف من سياق النزول أنه محمد ﷺ، تكريماً له ﷺ، ويظهر الفرق لو قيل: عبس محمد وتولى، لكان في الأسلوب إلصاق دائم لهذه الصفة به ﷺ، "وآذن بمدحه صلى الله عليه وسلم بأن ذلك خلاف ما طبعه عليه سبحانه من رحمة المساكين ومحبتهم والسرور بقربهم وصحبتهم" [3].

٦- ابتداء السورة بهذا العتاب من الله لنبيه ﷺ من أجل رجل أعمى من عامة الناس فيه تعليم للأمة قدر القيم والمبادئ والأخلاق، فإذا كان ذلك مع الموصوف بـــ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، فكيف بحالنا نحن؟.

٧- كما في ذلك ضرورة الاهتمام بكل الأفراد في مسيرة الدعوة، وألاَّ نتجاوز ذوي الحاجة، فقد يكون فيهم من الخير مالا يكون في غيرهم.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي - (ج ٩ / ص ٣٣٢).

(٢) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ٩٢).

(٣) نظم الدرر للبقاعي - (ج ٩ / ص ٣٣٢).

﴿أَنْ جَاءهُ الأَعْمَى﴾

١- (أنْ) هنا تفسيرية؛ أي لأنه جاءه الأعمى، أي أن سبب العبوس والتولي هو مجيء الأعمى، وهذا يقتضي أن اللحظة التي جاء فيها الأعمى كان النبي ﷺ مشغولاً فيها، ومهتماً بأمر آخر يرى أنه أهم، وهذا ما يؤيده سبب النزول.

٢- ذكر المجيء (جاءه) يدل أن الأعمى لم يكن عنده في ابتداء دعوته للكفار وحواره معهم.

٣- ذكر وصف الرجل بالأعمى دون أي وصف آخر مثل (الرجل) أو (السائل)؛ ليبعث الوصف على الشفقة، فمثله يُهتَمُ لأمره، وهذا يفسر العبوس والتولي، يقول ابن عاشور: "وعُبِّر عن ابن أم مكتوم بـــ{الأعمى} ترقيقاً للنبي ﷺ، ليكون العتاب ملحوظاً فيه أنه لما كان صاحب ضَرارة فهو أجدر بالعناية به، لأن مثله يكون سريعاً إلى انكسار خاطره"(١).

٤- ذكر وصف (الأعمى) قد يتناسب مع العبوس والتولي من وجه آخر؛ وهو أن الأعمى لا يرى ذلك أي: العبوس والتولي، خصوصاً إذا أريد بالتولي الإعراض بالوجه، أو الجسد دون الانصراف.

٥- في ذكر الأعمى والعتاب في حقه بيان أن من قد نظن أنه أبعد عن الفائدة (بكونه أعمى مثلاً) هو أقرب إليها من المبصرين، فهو هنا أولى بالاهتمام من سراة القوم وكبرائهم، وإن كانوا مبصرين مؤثرين.

"وصيغة الخبر مستعملة في العتاب على الغفلة عن المقصود الذي تضمنه الخبر،...ولّما كان صدور ذلك من الله لنبيه ﷺ، لم يشأ الله أن يفاتحه بما يتبادر منه أنه المقصود بالكلام، فوجهه إليه على أسلوب الغيبة ليكون أول ما يقرع سمعه باعثاً على أن يترقب المعنيَّ من ضمير الغائب، فلا يفاجئه العتاب، وهذا تلطف من الله برسوله ﷺ، ليقع العتاب في نفسه مدرجاً وذلك أهون وقعاً، ونظير هذا قوله: ﴿عفا اللَّه عنك لم أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣]، قال عياض: قال عون بن عبد الله والسمرقندي: أخبره الله بالعفو قبل أن يخبره بالذنب، حتى سكن قلبه. ا.هـ، فكذلك توجيه العتاب إليه مسنداً إلى ضمير الغائب، ثم جيء بضمائر الغيبة، فَذَكَر الأعمى، فظهر المراد من القصة، واتضح المراد من ضمير الغيبة، ثم جيء بضمائر الخطاب على طريقة الالتفات"(٢).

---

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ٩٣).

(٢) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ٩٣).

وليس هذا العتاب بمنقصة له ﷺ؛ إذ إنَّ ما فعله كان في مصلحة الدعوة، "ويظهر أن النبي ﷺ رجا من ذلك المجلس أن يُسلموا فيسلم بإسلامهم جمهور قريش، أو جميعهم، فكان دخول ابن أم مكتوم قطعاً لسلك الحديث، وجعل يقول للنبي ﷺ: يا رسول الله استدنني، علمني، أرشدني، وياديه، ويكثر النداء والإلحاح، فظهرت الكراهية في وجه الرسول ﷺ؛ لعله لقطعه عليه كلامه وخشيته أن يفترق النفر المجتمعون، وفي رواية الطبري أنه استقرأ النبي ﷺ آية من القرآن"[1].

ويقول البقاعي -رحمه الله-: "﴿أن جاءه الأعمى﴾ الذي ينبغي أن يبالغ في العطف عليه، وفي إكرامه جبراً لكسره، واعترافاً بحقه في مجيئه، وذكره بالوصف للإشعار بعذره في الإقدام على قطع الكلام، والبعث على الرأفة به والرحمة له ، فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا رآه بعد ذلك قال: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي»"[2].

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾

هذا سؤال تنبيهي مراده لفت النظر لموضع الخلل، يقول ابن عاشور: "والاستفهام في هذه التراكيب مراد منه التنبيه على مغفول عنه،... والمعنى: أيُّ شيء يجعلك دارياً، وإنما يستعمل مثله لقصد الإجمال ثم التفصيل"[3].

١- فائدة: كل ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ في القرآن لا جواب لها، وكل ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ لها جواب.

٢- توجه الخطاب ﴿يدريك﴾ بعد الغيبة ﴿عبس وتولى﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ليكون الكلام أكثر تحديداً، وليكون المخاطب أكثر قصداً.

٣- ذكر (لعل) للإشعار بقرب وإمكان حصول التزكي والتذكر لهذا الطالب، فلمَ الإعراض عنه إذاً؟.

٤- في ذكر التزكية (يزكى) ما يشعر بأن التزكية مطلب يستحق الاهتمام من الإنسان نفسه، ومن الداعية مع المدعوين؛ وذلك لأن التزكية هي الزيادة والنماء.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى﴾

١- هذا هو المأمول الثاني وهو التذكر، فهو يستفيد لا محالة، إما بالتزكية، وتقديمها يدل على

---

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ٩٣).

(٢) نظم الدرر للبقاعي - (ج ٩ / ص ٣٣٢).

(٣) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ٩٤).

أهميتها، أو بالتذكر الذي هو: "حصول أثر التذكير، فهو خُطور أمر معلوم في الذهن بعد نسيانه، إذ هو مشتق من الذُّكر بضم الذال"[1].

٢- مع التزكية لم يكن هنا قيد، بينما ذكر القيد مع التذكر (وهو النفع)، وهذا يدل على أن التذكر بحد ذاته نافعاً، وكذلك التزكي، ولكن من عادة الناس تقليل شأن التذكر، لأنه قد يكون بأمر معروف، فيقولون ما الفائدة منه؟.

٣- مجيء (أو) دون الواو (ويتذكر) دليل على أنهما أمران يمكن أن ينفصلا عن بعضهما، وهذا يدل على أهمية كل منهما على حدة، ولو عطفا بالواو (ويتذكر) لربما فُهم أن التذكر تابعٌ للتزكي.

٤- مجيء مادة (ذكر) مرة أخرى (الذكرى) دون أن يقال: (يَذّكر فينتفع) للاهتمام بشأن التذكير، والتنبيه على عظيم نفعه، كيف لا وقد قال سبحانه في شأنه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾

١- (أما) تفصيلية، تدل على أن ما بعدها فيه تقسيم.

٢- (مَنْ) اسم موصول مشترك، وبهذا لم يحدد من يكون المستغني أو اكتُفيَ بجملة الصلة (استغنى) فعُلِم منه أنه المعرض المستغني عن التذكير، ومجيء (مَنْ) دون (الذين) مثلاً ليشمل ذلك كل من هذه صفته، أو وليكون منهجاً متبعاً للدعاة والناصحين.

٣- ذكر وصف الاستغناء (استغنى) يشير إلى الكبر والاكتفاء والإعراض عما يدعو إليه النبي ﷺ، "فالسين والتاء للحسبان، أي حسب نفسه غنياً، وأكثر ما يستعمل الاستغناء في التكبر والاعتزاز بالقوة"[2]، ومثل هؤلاء ينبغي ألا يصرف كل الوقت والجهد لهم، ويهمل المحتاجون المقبلون، وفي هذا المجال يذكر المعتنون بالخطاب والجمهور أن على الملقي والمتحدث أن يهتم بالجمهور الراغب، وألا ينشغل بالجمهور المعرض.

﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى﴾

١- هنا نجد المفارقة، فالمدعو مستغنٍ، وأنت يا محمد – بحرصك على هدايته – تتصدى له، وتهتم

---

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ٩٤).

(٢) التحرير والتنوير – (ج ١٦ / ص ٩٥).

بأمره.

٢- مجيء المخاطبة هنا (أنت) دون أن يكون الكلام (أما من استغنى فتتصدى له الكلام) ليكون العتاب أوضح، حتى لكأنه قيل: أنت يا محمد خصوصاً تتصدى له، خصوصاً بعد التمهيد لذلك بالغيبة أولاً ليكون أبعد عن المواجهة.

٣- في ذكر الضمير وتقديمه دلالة أخرى، بيّنها ابن عاشور بقوله: "والإتيان بضمير المخاطب مُظهراً قبلَ المسند الفعلي دون اسْتِتاره في الفعل يجوز أن يكون للتقوِي، كأنه قيل: تتصدى له تصدياً، فمناط العتاب هو التصدي القوي، ويجوز أن يكون مفيداً للاختصاص، أي فأنت لا غيرُك تَتَصدّى له، أي ذلك التصدّي لا يليق بك، وهذا قريب من قولهم: مثلُك لا يبخل، أي لو تصدّى له غيرك لكان هَوناً، فأما أنت فلا يتَصدى مثلك لمثله، فمناط العتاب هو أنه وقع من النبي ﷺ في جليل قدره"(١).

٤- تقديم الجار والمجرور ﴿لَهُ﴾ على متعلقه (تصدى) لبيان موطن العتاب، أي له خصوصاً، ويُفهم من هذا لو كان التصدي لغير هذا المُستغني لما كان به بأس.

٥- ذكر مادة التصدي (تصدى) تشعر بشدة الاهتمام، "لأن التصدِّي يعني: التعرض، أطلق هنا على الإقبال الشديد مجازاً"(٢)، وهذا يعني أن صرف الاهتمام كله لهم هو المعاتب عليه، أما بعضه فلا بأس.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى﴾

١- في هذه الجملة إعذار للنبي ﷺ بطريق الإيمان، وكذلك في ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ وفي هذا يقول ابن عاشور: "وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ [عبس: ٣] إيماء إلى عذر النبي ﷺ في تأخيره إرشاد ابن أم مكتوم، لما علمت من أنه يستعمل في التنبيه على أمر مغفول عنه، والمعنى: لعله يزّكى تزكية عظيمة كانت نفسه متهيئة لها ساعتئذ، إذ جاء مسترشداً حريصاً، وهذه حالة خفية.

---

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ٩٥).

(٢) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ٩٥).

وكذلك عذره في الحرص على إرشاد المشرك بقوله: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى﴾[عبس: ٧] إذ كان النبي ﷺ يخشى تبعة من فوات إيمان المشرك، بسبب قطع المحاورة معه، والإقبال على استجابة المؤمن المسترشد.

فإن قال قائل: فلماذا لم يُعلِم الله رسوله ﷺ من وقت حضور ابن أم مكتوم بما تضمنه هذا التعليم الذي ذكرتم، قلنا: لأن العلم الذي يحصل عن تبيُّن غفلة، أو إشعارٍ بخفاء يكون أرسخ في النفس من العلم المسوق عن غير تعطش؛ ولأن وقوع ذلك بعد حصول سببه أشهر بين المسلمين؛ وليحصل للنبي ﷺ مزية كِلا المقامين: مقام الاجتهاد، ومقام الإفادة.

وحكمة ذلك كله أن يُعلم اللهُ رسولَه ﷺ بهذا المهيع من عليِّ الاجتهاد، لتكون نفسه غير غافلة عن مثله، وليتأسى به علماء أمته وحكامها وولاة أمورها، "ونظير هذا ما ضَربه الله لموسى عليه السلام من المَثَل في ملاقاة الخضر، وما جرى من المحاورة بينهما، وقول الخضر لموسى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾ [الكهف:٦٨]، ثم قوله له: ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾ [الكهف: ٨٢]، وقد سبق مثله في الشرائع السابقة، كقوله في قصة نوح: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، وقوله لإبراهيم: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]"[(١)].

٢- المذكور هنا حالة مضادة لسابقتها، فالمدعو وهو الأعمى كان مقبلاً قابلاً للتزكي، والمذكور هنا معرض مستغنٍ بعيد عن التزكية، فأيهما أولى بالاهتمام؟.

٣- في قوله تعالى ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى﴾ دليل أن صلاح البشر ليس من مسؤوليتنا بعد ما نقوم بالواجب تجاههم من بيان الحق، أما أن يموت الإنسان من أجلهم، أو يغتم، فليس هذا بمطلوب؛ "والمعنى: عدم تزكّيه ليس محمولاً عليك، أي لست مؤاخذاً بعدم اهتدائه حتى تزيد من الحرص على ترغيبه في الإيمان ما لم يكلفك الله به، وهذا رفق من الله برسوله ﷺ"[(٢)].

٤- ذكر التزكية هنا ونفيها ليطابق (يضاد) ما سبق مع الحالة الأولى، ليتضح الفرق بين الحالتين.

﴿وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى﴾

١- هذا هو القسيم الثاني للمعرض، ذُكرَ لبيان تفصيلات تدل على استحقاقه الاهتمام.

٢- ذِكْرُ فعل المجيء مع ما يخص الأعمى ظاهراً، فقد ذُكِرَ معه أولاً ﴿جاءه﴾ ثم ﴿جاءك﴾، ولم يأت ذلك مع المعرض ﴿وأما من استغنى﴾، وهذا يدل على الرغبة في الخير عند الأعمى، حيث

---

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ٩٩)

(٢) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ٩٦).

بذل جهداً، وانتقل من مكان لآخر بخلاف (المعرض).

٣- ذكر كافِ الخطاب مع الفعل ﴿جاءك﴾ دون ﴿جاء﴾ لبيان أنه يقصدك أنت يا محمد خصوصاً، ومثل هذا لابد أن يُهتم بأمره.

٤- فعل (يسعى) يؤيد ما سبق من الحرص، لكنه يدل زيادة على ما سبق على الاستعجال والمسارعة، ذلك لأن "السعي: شدة المشي، كُنِي به عن الحرص على اللقاء فهو مقابل لحال من استغنى،...واختير الفعل المضارع لإفادته التجدد"[١].

٥- مجيء الفعل بصيغة المضارع (يسعى) كان لتصوير حالة المجيء، والفعل بما فيه من الحركة خير ما يبينُ ذلك.

٦- الحال الثانية ﴿وهو يخشى﴾، جاءت اسمية بخلاف الأولى فعلية (يسعى)، ذلك لأن الخشية أمر قلبي يصعب وصفه بالحركة والتجدد، بينما السعي أمر ظاهر، والحركة فيه واضحة، يقول عبد الستار سعيد عن دلالة هاتين الجملتين." دلالة (يسعى) غير دلالة (وهو يخشى) ففي (يسعى) دلالة على تصوير حركة الماشي الذي يقطع الطريق شيئاً فشيئاً، وفي (وهو يخشى) إثبات الخشية من الله لذلك الماشي، والجملتان حاليتان لا تقوم إحداهما بما قامت به الأخرى"[٢]؛ لأن الحال الأولى حركية فعلية فناسب إظهارها الفعل لما فيه من التنصيص على الحركة وهي (السعي) من أول الأمر، وهي حركة تنشأ شيئاً فشيئاً وهذه هي دلالة الفعل، ولو قيل: (وهو يسعى) لكان في ذلك لفتاً للساعي ذاته لا لفعله، فلما كان الساعي معلوماً، والاهتمام إنما بتصوير حالته وهيئته في قدومه على النبي ﷺ طالباً للمزيد من الخبر كان الفعل هو الأنسب لتصوير تلك الحال، أما الحال الثانية فجاءت لبيان استقرار الخشية من الله في قلبه، أو لإظهار ضعفه حيث كان أعمى لا قائد له، فهو يخاف العثار والسقوط والهوام[٣]، وجيء بالضمير للتنصيص على أن ذلك الساعي هو من هذه الحالة، أو لتأكيد اتصافه بالخشية ودِيمومتها فيه، خاصة إذا نظرنا للخشية بأنها عمل قلبي الأصل فيه الديمومة، فتناسبه الجملة الاسمية الدالة على ذلك[٤].

---

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ٩٧).

(٢) الحال في الأسلوب القرآني ١٢٧.

(٣) البحر المحيط ٤٠٧/١٠.

(٤) انظر: بلاغة الحال في النظم القرآني، د. عويض العطوي، مطبوعات النادي الأدبي بتبوك ص ١٠١.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾

١- هذه الجملة في مقابل (فأنت له تصدى)؛ لبيان شدة المفارقة بين الموقفين.

٢- تكرار ضمير المخاطب (أنت) لبيان أن المخاطب في كل هذه الجُمل واحد، ولبيان أن العناية متجهة إليه.

٣- تقديم الجار والمجرور (عنه) على متعلقه (تلهّى) في مقابل (تصدى) ليظهر الفرق بين الحالين، ولما في مادة التلهي هنا (تلهّى) من الانشغال وعدم الاهتمام في الظاهر وهذا موطن العتاب، مع أن ما كان سبباً لانشغال النبي ﷺ كان لأجل الدعوة، لكنه يعد في حق الأعمى تلهياً.

٤- يقول ابن عاشور: "والأظهر عندي أن مناط العتاب الذي تؤتيه لهجة الآية، والذي رُوي عن النبي ﷺ ثبوتُه من كثرة ما يقول لابن أم مكتوم: «مرحباً بمن عاتبني ربي لأجله» إنما هو عتاب على العُبوس والتولّي، لا على ما حفّ بذلك من المبادرة بدعوة، وتأخير إرشاد، لأن ما سلكه النبي ﷺ في هذه الحادثة من سبيل الإرشاد لا يستدعي عتاباً، إذ ما سلك إلا سبيل الاجتهاد القويم"[(١)].

٥- قوله: ﴿تلهى﴾ تشير في تصاريف المادة إلى الاشتغال بمن لا فائدة منه[(٢)].

﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾

١- كلا كلمة ردعٍ وردٍ وإبطال، تشعر بأن ما قبلها غير موافَقٌ عليه، ويكون المراد إبطال ذلك الفعل المعاتب عليه، أو ما يمكن أن يقع في النفس من المعاتبة على عرض الآيات على القوم.

٢- التأكيد بـ (إن) دليل اهتمام بالكلام بعدها.

٣- الضمير في (إنها) إما أن يعود على الحادثة والواقعة، أو على الآيات (القرآن) التي يسأل عنها الأعمى، أو التي يعرضها النبي ﷺ على الكفار، والآيات هنا أكثر ظهوراً بدلالة الأوصاف بعدها، فإنها تخص القرآن، وتقترن به، فيكون المراد: إنها (أي: آيات القرآن) تذكرة.

٤- ذكر مادة (التذكير) تذكره يتناسب مع ما سبق من تكرار هذه اللفظة.

يقول ابن عاشور: "يجوز عندي أن يكون ﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ استئنافاً ابتدائياً موجهاً إلى من كان النبي ﷺ يدعوه قُبيل نزول السورة، فإنه كان يَعرض القرآن على الوليد بن المغيرة ومَن معه، وكانوا لا

---

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١٠٠).

(٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي - (ج ٩ / ص ٣٣٥).

يستجيبون إلى ما دعاهم، ولا يصدقون بالبعث، فتكون (كلاّ) إبطالاً لما نَعتوا به القرآن من أنه أساطير الأولين أو نحوِ ذلك.

فيكون ضمير (إنها تذكرة) عائداً إلى الآيات التي قرأها النبي ﷺ عليهم في ذلك المجلس، ثم أعيد عليها الضمير بالتذكير للتنبيه على أن المراد آيات القرآن، ويؤيد هذا الوجهَ قولُه تعالى عَقبه: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ الآيات، حيث ساق لهم أدلة إثبات البعث، فكان تأنيث الضمير نكتةً خصوصية لتحميل الكلام هذه المعاني"[1].

﴿فَمَن شَاء ذَكَرَهُ﴾

المراد: الله سبحانه، وهنا سؤال، لما أُنِّث الضمير في (إنها)، وذُكِّرَ في ﴿ذكرَه﴾؟ قد يكون الجواب أن المراد من الضميرين مختلف؛ فالأول يراد بها الآيات، والثاني الله سبحانه، ويحتاج الأمر إلى بحث.

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾

١- حرف الجر ﴿في﴾ حدّد مكان الذكر وهو الصحف المكرمة، وهو يشعر بعظم شأن المذكَّر به.

٢- في قوله ﴿صحف﴾ دون غيرها للإشارة إلى التوثيق، وذلك لأن "الصحيفة تطلق على ما يكتب فيه"[2].

٣- وصفها بـــ ﴿مكرمة﴾ يدل على عظم مكانتها، لأن التكريم يدل على التعظيم.

﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾

١- ﴿مرفوعة﴾ هذا الوصف الثاني لها، وهو يدل أيضاً على التعظيم.

٢- ﴿مطهرة﴾ هذا هو الوصف الثالث لتلك الصحف، وهو يدل على النقاء.

وبهذا تكون أوصاف تلك الصحف ثلاثة (التكريم، الرفع، التطهير)، ولعل في ذلك إشارة إلى أن هذا ما ينبغي استحضاره في التعامل مع القرآن العظيم، لأنه مصدر التذكرة.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾

---

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١٠٢).

(٢) انظر: التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١٠٣).

١- تلك الصحف ﴿بأيدي سفرة﴾ وهم الملائكة، والإسفار يعني نوراً يعلو وجوههم، "قال الزجاج: وإنما قيل للكتاب سِفْر (بكسر السين)، وللكاتب سَافر؛ لأن معناه أنه يُبيِّن الشيء، ويوضحه؛ يقال: أسفر الصبح، إذا أضاء، وقاله الفراء"[١]، يقول ابن عاشور: "وفي وصفهم بالسفرة ثناء عليهم؛ لأنهم يبلغون القرآن للناس، وهم حُفَّاظه ووعاته، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] فهذا معنى السفرة، وفيه بشارة بأنهم سينشرون الإسلام في الأمم، وقد ظهر مما ذكرنا ما لكلمة ﴿سفرة﴾ من الوقع العظيم المعجز في هذا المقام"[٢].

٢- ذكر اليد يدل على الحفظ والرعاية ممن هذا وصفهم.

٣- ﴿كرام﴾ هذا وصفهم الأول، وهو يتناسب مع وصف مكرمة قبل ذلك، فهم كرام يكرمون تلك الصحف؛ أي: يعظمونها.

٤- ﴿بررة﴾ هذا هو الوصف الثاني، وهو يدل على كثرة الخير وهذا شأن من يتعامل مع القرآن العظيم، "ووصف البرَرة ورد صفةً للملائكة في الحديث الصحيح قوله: "الذي يقرأ القرآن وهو ماهِر به مع السَفرة الكرام البرَرَة"، والبررة: جمع بَرّ، وهو الموصوف بكثرة البرور، وأصل بَرّ مصدر بَرَّ يبَرّ من باب فَرح، ومصدره كالفَرح، فهذا من باب الوصف بالمصدر، مثل: عَدل، وقد اختص البررة بجمع بَرّ، ولا يكون جمع بارّ، والغالب في اصطلاح القرآن أنَّ البررة الملائكةُ، والأبرارَ الآدميون، قال الراغب: «لأنَّ بررة أبلغ من أبرار، إذ هو جمع بَرّ، وأبرار جمع بَار، وبَرّ أبلغ من بار، كما أن عَدلا أبلغ من عادل»"[٣].

وهذا تنويه بشأن القرآن؛ لأن التنويه بالآيات الواردة في أول هذه السورة من حيث إنها بعض القرآن، فأثني على القرآن بفضيلة أثَره في التذكير والإرشاد، وبرفعة مكانته، وقدس مصدره، وكرم قراره، وطهارته، وفضائل حَمَلَتِه ومبلغيه، فإن تلك المدائح عائدة إلى القرآن بطريق الكناية"[٤].

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُۥ﴾

---

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١٠٣).

(٢) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١٠٤).

(٣) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١٠٥).

(٤) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١٠٥).

١- "بناء ﴿قتل﴾ للمجهول متفرع على استعماله في الدعاء، إذ لا غرض في قاتِل يَقتله، وكثر في القرآن مبنياً للمجهول نحو ﴿فقتل كيف قدر﴾[المدثر: ١٩]"[١].

٢- هذا دعاء على الإنسان بسبب شدة كفره.

٣- ذكر (الإنسان) دون الجمع مثلاً (الناس) لأن (ال) فيه لاستغراق، الجنس فهو يشمل كل إنسان، وهذا أقوى في التعميم مع بناء الإحساس بالمسؤولية الخاصة الفردية التي يشعر بها المفرد، ولو قيل: الناس ما تحقق ذلك، ويمكن أن يراد به جنس محدد كما قال مجاهد: " ما كان في القرآن ﴿قتل الإنسان﴾، فإنما عُني به الكافر"[٢].

٤- (ما أكفره)، قد تكون (ما) استفهامية، فيكون المعنى: أي شيء جعله يكفر، وفي هذا دلالة على وضوح الأدلة المفضية للإيمان، وأنه لا يوجد من الدلائل ما يقود إلى خلاف ذلك، وقد تكون (تعجبيه) فيكون أسلوب تعجبي من حال هذا الإنسان الذي أنعم عليه ربه لم يكفر به، أو يكفر نعمه، يقول ابن عاشور: "وجملة ﴿ما أكفره﴾ تعليل لإنشاء الدعاء عليه دعاء التحقير والتهديد، وهذا تعجيب من شدة كفر هذا الإنسان، ومعنى شدة الكفر أن كفره شديد كَمّاً وكيْفاً، ومتىً؛ لأنه كفر بوحدانية الله، وبقدرته على إعادة خلق الأجسام بعد الفناء، وبإرساله الرسول، وبالوحي إليه ﷺ، وأنه كفر قوي، لأنه اعتقاد قوي لا يقبل التزحزح، وأنه مستمر لا يقلع عنه مع تكرر التذكير والإنذار والتهديد، وهذه الجملة بلغت نهاية الإيجاز، وأرفع الجزالة بأسلوب غليظ دال على السخط بالغ حدّ المذمة، جامع للملامة، ولم يسمع مثلها قبلها، فهي من جوامع الكلم القرآنية "[٣].

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾

١- هذا استفهام لهز النفوس واستثارتها لتقر بالحق.

٢- ذكر (من) المُشعرة بالابتداء فيه عناية بالمبدأ، لأنه الموصل إلى الحقيقة.

٣- (أي) استفهامية، وذكر (شيء) معها يوصل إلى أن المراد تذكر الإنسان وتفكره في مبدئه ومنشئه؛ من أين كان، وكيف كان؟.

---

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١٠٦).

(٢) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١٠٦).

(٣) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١٠٧).

٤- ذكر مادة الخلق (خلقه) لصرف الذهن إلى أن المراد التفكر في أصل الخلق خصوصا.
٥- فاعل (خلقه) محذوف والتقدير (ربه) أو الله، وإنما حذف لأنه معلوم، وفعل الخلق عندما يطلق لا يصرف إلاَّ إليه سبحانه.

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾

١- هذا جواب على السؤال، وأعيدت فيه (من) لبيان العناية بالمبدأ، لأنها لابتداء الغاية، "وجيء في هذا الاستدلال بصورة سؤال وجواب للتشويق إلى مضمونه، ولذلك قرن الاستفهام بالجواب عنه على الطريقة المتقدمة في قوله تعالى: ﴿عم يتساءلون عن النبأ العظيم﴾ [النبأ: ٢،١]"[(١)].

٢- ذكر مادة الخلق وهي (النطفة) لإشعار الإنسان بضعفه من جهة، وحقارته من جهة أخرى إذا لم يرفع نفسه ويكرمها بالإيمان، فهذا أصله لو تفكر، فعَلامَ يكفُر؟، يقول أبو السعود: "وفي الاستفهامِ عن مبدأ خلقِه ثم بيانِه بقولِه تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ﴾ تحقيرٌ له، أيْ: مِنْ أيِّ شيءٍ حَقيرٍ مهينٍ خلقَهُ؛ من نطفةٍ مذرةٍ"[(٢)].

ولابن عاشور رأي آخر؛ يقول فيه: "فذُكرت النطفة لتعيُّن ذكرها لأنها مادة خلق الحيوان للدلالة على أن صنع الله بديع، فإمكان البعث حاصل، وليس في ذكر النطفة هنا إيماء إلى تحقير أصل نشأة الإنسان؛ لأن قصد ذلك محل نظر، على أن المقام هنا للدلالة على خلقٍ عظيم، وليس مقام زجر المتكبر"[(٣)].

٣- تقديم (من نطفة) على متعلقه (خلقه) لبيان العناية بالمبدأ وجنسه، يقول ابن عاشور: "وقدم الجار والمجرور في قوله. ﴿من نطفة خلقه﴾ محاكاة لتقديم المبيَّن في السؤال الذي اقتضى تقديمَه كونُه استفهاماً يستحق صدر الكلام، مع الاهتمام بتقديم ما منه الخلق، لما في تقديمه من التنبيه للاستدلال على عظيم حكمة الله تعالى، إذ كوّن أبدع مخلوق معروف من أهون شيء وهو النطفة "[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١٠٧).
(٢) تفسير أبي السعود - (ج ٦ / ص ٤٦١).
(٣) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١٠٨).
(٤) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١٠٧).

٤- تكرار مادة (الخلق) لبيان أن المقصود هو الخلق والإيجاد هنا، يقول ابن عاشور: "وإنما لم يستغن عن إعادة فعل خلقه في جملة الجواب مع العلم به بتقدم ذكر حاصله في السؤال؛ لزيادة التنبيه على دقة ذلك الخلق البديع"[١].

٥- ذكر التقدير (فقدره) فيه من عظيم منّة الله على الإنسان مالا يخفى، إذ لولا هذا التقدير لما كان خلقا سوياً.

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾

١- مجيء (ثمّ) يدل على التراخي في الزمن والحالة عما سبق من النطفة، ولو تأملنا لوجودنا زمناً طويلاً بين النطفة وخروجه من رحم أمه، وقد يكون المراد تيسير العمل، وفي هذا يقول ابن عاشور: " وحرف ﴿ثم﴾ من قوله. ﴿ثم السبيل يسره﴾ للتراخي الرتبي، لأن تيسير سبيل العمل الإنساني أعجب في الدلالة على بديع صنع الله، لأنه أثَرُ العقل، وهو أعظم ما في خلق الإنسان، وهو أقوى في المنة"[٢].

٢- (السبيل) يعني الطريق، والمقصود خروجه من بطن أمه وهو الأقرب للسياق، ويمكن أن يشمل تيسيره لطريق الخير أو الشر، "وتعريفُ السبيلِ باللامِ دونَ الإضافةِ للإشعارِ بعمومِه"[٣]، "وفيه مناسبة لقوله بعده. ﴿ثم أماته فأقبره﴾، فـــ﴿أماته﴾ مقابل ﴿خلقه﴾، و ﴿أقبره﴾ مقابل ﴿ثم السبيل يسره﴾، لأن الإقبار إدخال في الأرض وهو ضد خروج المولود إلى الأرض"[٤].

٣- "وتقديم ﴿السبيل﴾ على فعله للاهتمام بالعبرة بتيسير السبيل بمعنييه المجازيين، وفيه رعاية للفواصل"[٥].

٤- ذكر مادة التيسير (يسره) فيه إشارة إلى عظم المنة على هذا الإنسان، وبيان أن خروجه ربما يكون عسيرا لولا تيسير الله.

٥- تيسير السبيل كناية عن الولادة، وهذا ولا شك ألطف وأرقى من لو قيل: ثم ولد، أو خرج من بطن أمه.

---

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١٠٨).

(٢) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١٠٨).

(٣) تفسير أبي السعود - (ج ٦ / ص ٤٦١).

(٤) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١٠٨).

(٥) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١٠٨).

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾

١- ذكر (ثمّ) هنا دليل أن المذكور هو (الإماتة) مرحلة متأخرة عما قبلها، وهي كذلك زماناً، وأيضا متغايرة عنها نوعاً، فهي ضدها.

٢- ذكر الموت هنا هو في مقابل الخلق، وتيسير السبيل المكنى به عن الولادة، والولادة إظهار والموت تغييب.

٣- إسناد الإماتة إلى الله دون (ثم مات) لبيان أن الذي بيده ذلك هو الله وحده سبحانه.

(فأقبره) الفاء تدل على التعقيب بخلاف (ثمّ)، وهذا يدل على أن قبر الميت يكون بعد موته مباشرة، يقول الشوكاني: "وقال أقبره، و لم يقل قبره؛ لأن القابر هو الدافن بيده، ومنه قول الأعشى:

لو أسندت ميتاً إلى صدرها... عاش ولم ينقل إلى قابر"[١].

"و ﴿أقبره﴾ جعله ذا قبر، وهو أخص من معنى قَبَره، أي: أن الله سَبّب له أن يقبر، قال الفراء: (أي جعله مقبوراً، و لم يجعله ممن يُلقى للطير والسباع ولا ممن يلقى في النواويس)"[٢].

﴿ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ﴾

١- مجيء (ثمّ) هنا للتدليل على الإنشار وهو البعث، متأخر زماناً، ومختلف الهيئة عما سبقه، وهذا ظاهر، فالإماتة والإقبار تغييب، والبعث إظهار، والبعث متأخر زماناً عن الموت، يقول ابن عاشور: "عطف ﴿ثم أماته﴾ على ﴿يسره﴾ بحرف التراخي هو لتراخي الرتبة، فإن انقراض تلك القُوى العقلية والحسيّة بالموت، بعد أن كانت راسخة زمناً ما انقراض عجيب دون تدريج، ولا انتظارِ زمانٍ يساوي مدة بقائها، وهذا إدماج للدلالة على عظيم القدرة"[٣].

٢- ذكر أداة الشرط (إذا) الدالة على ما يستقبل من الزمان دليل أن الأمر في ذلك لله وحده، فزمان الإنشار لا يعلمه إلا هو سبحانه.

٣- التعليق بالمشيئة (شاء) لبيان ذلك إليه وحده سبحانه، وأنه لا يحدث إلا بأمره سبحانه، يقول أبو السعود: "وفي تعليقِ الإنشارِ بمشيئتِه تعالى إيذانٌ بأنَّ وقتَهُ غيرُ متعينٍ، بلْ هُو تابعٌ لهَا"[٤]،

---

(١) فتح القدير - (ج ٧ / ص ٤٢١).

(٢) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١٠٩).

(٣) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١٠٨).

(٤) تفسير أبي السعود - (ج ٦ / ص ٤٦١).

ويقول ابن عاشور: "وفي قوله: ﴿إذا شاء﴾ ردّ لشبهتهم، إذ كانوا يطلبون تعجيل البعث تحدياً وتهكماً ليجعلوا عدم الاستجابة بتعجيله دليلاً على أنه لا يكون، فأعلمهم الله أنه يقع عندما يشاء الله وقوعه، لا في الوقت الذي يسألونه؛ لأنه موكول إلى حكمة الله"[1].

٤- "ووقع قوله: ﴿إذا شاء﴾ معترضاً بين جملة ﴿أماته﴾ وجملة: ﴿أنشره﴾ لرد توهم المشركين أن عدم التعجيل بالبعث دليل على انتفاء وقوعه في المستقبل، و(إذا) ظرف للمستقبل، ففعل المضي بعدها مؤول بالمستقبل"[2].

٥- (أنشره) أي: "بعثه من الأرض، وأصل النشر إخراج الشيء المخبأ يقال. نشر الثوب، إذ أزال طيّه،... وأما الإنشار بالهمز فهو خاص بإخراج الميت من الأرض حيّاً"[3]، وهو البعث، وذكر الإنشار هنا ملائم لمقابلة الإماتة والإقبار، فذاك تغييب، وهذا إظهار وإشهار، فناسبت كلمة الإنشار ذلك.

﴿كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾

١- مجيء كلا هنا أشكل على المفسرين، فقيل هي للردع والرد، وعلى هذا لا يحسن الوقوف عليهاـــ لئلا يفهم أن الرد لقوله تعالى(ثم إذا شاء أنشره)، وقيل. هي بمعنى حقا، وعلى هذا فلا مانع من الوقف.

٢- النفي بـــ(لما) دون (لم) لبيان استمرار النفي حتى لحظة التكلم.

٣- ذكر القضاء يدل على عظم التبعة عليه، حتى لكأنَّ ما ذكر دين يجب عليه قضاؤه.

٤- ذكر الأمر ليتضح ما يراد قضاؤه، وهو أمر الله.

﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾

١- الفاء هنا"مع كونها للتفريع تفيد معنى الفصيحة، إذ التقدير. إن أراد أن يقضي ما أمره فلينظر إلى طعامه، أو إن أراد نقض كفره فلينظر إلى طعامه"[4].

---

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١١٠).

(٢) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١٠٩).

(٣) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١١٠).

(٤) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١١٣).

٢- ذكر مادة (النظر) هنا في غاية الدقة والروعة، حيث إنه يشمل نظر (البصر)، ونظر القلب والعقل، وإن كان المقدم هنا نظر العين لتعدية الفعل بـــ(إلى)، ولو أريد الثاني لعدي بـــ(في).

٣- مجيء النظر بالمضارع (فلينظر) يوحي بضرورة تكرار ذلك أكثر من مرة، وتجدده في أكثر من موقف وصورة.

٤- تكرير كلمة (الإنسان) فيه عناية بشأنه مع الاستدلال خصوصاً، لذا لا تجد هذه الكلمة تكررت (ظاهرة) مع ما قبله.

٥- مجيء (الإنسان) دون الناس سبق بيانه.

٦- تعدية الفعل بـــ(إلى) دون (في)، للإشارة إلى النظر ينبغي أن يبدأ بنظر العين، ويمكن أن ينتقل منه إلى التأمل والاستدلال.

٧- "تعدية فعل النظر هنا بحرف (إلى) تدل على أنه من نظر العين إشارة إلى أن العبرة تحصل بمجرد النظر في أطواره، والمقصود التدبر فيما يشاهده الإنسان من أحوال طعامه بالاستدلال بها على إيجاد الموجودات من الأرض. وجُعل المنظور إليه ذاتَ الطعام مع أن المراد النظر إلى أسباب تكونه وأحوال تطوره إلى حالة انتفاع الإنسان به، وانتفاع أنعام الناس به"[1].

٨- إضافة الطعام إلى الإنسان (طعامه) فيه إيحاء بقربه منه، وغفلته عما فيه من الدلالات، لأنه لها عنه بمقتضى التكرر والعادة، فهل نحن بعد قراءة هذه الآية نتأمل في طعاماً لنشكر ربنا.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً﴾

١- في الآية التفات من الغيبة إلى التكلم، وهذا يوحي يعظم شأن المذكور، حيث نسبه الرب سبحانه إلى نفسه.

---

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١١٣).

٢- مجيء (أن) في صدر الجملة تدل على أهميتها، "أي الغيثَ بدلُ اشتمالٍ من طعامِه؛ لأنَّ الماءَ سببٌ لحدوثِ الطعامِ، فهُو مشتَملٌ عليهِ، وقُرِئَ إنَّا على الاستئنافِ، وقُرِئَ أنى بالإمالةِ، أي: كيفَ صببَنا إلى آخرِه، أي: صببنَاهُ صَّباً عجيباً"(١) .

٣- ذكر ضمير الجمع (نا) هنا يشعر بعظمة الخالق سبحانه، فكأنه قيل: إنا بمالنا من العظمة، وكذلك دلالة (نا) في الفعل بعده (صببنا) ، وما يأتي من الأفعال.

٤- ذكر مادة الصب (صببنا) فيه دلالة الكثرة؛ لأن الصب هو السكبُ بغزارة.

٥- مجيء مادة الصب بصيغة الماضي (صببنا) للإشعار بأن ذلك أمر سابق قديم، وهذا يدل على أن فضل الله سابق على هذا الإنسان الكفور.

٦- كون المصبوب هو (الماء) دليل أنه هو المؤثر الأكبر في طعام الإنسان، وخصوصاً إذا كان مصبوباً (أي: كثيراً).

٧- مجيء (الماء) معرفة دون التنكير (ماء) للإشعار بأن المذكور (ماء) مألوف معروف، وهو المطر النازل من السماء، والعرب خير من يعرف فضل الله في المطر، لأنهم أصحاب بيئة صحراوية، ولهذا يسمون: بنو ماء السماء.

٨- تأكيد الصب بالمفعول المطلق (صباً) فيه عناية بشأن الصب خاصة، كما يوحي بكثرة الصب، وربما تكرره، لأن هذا هو مسوّغ التوكيد، يقول ابن عاشور: " وانتصب ﴿صبّاً﴾ و ﴿شقاً﴾ على المفعول المطلق لــ﴿صببنا﴾ و ﴿شققنا﴾ مؤكّداً لعامله ليتأتى تنوينه لما في التنكير من الدلالة على التعظيم، وتعظيم كل شيء بما يناسبه، وهو تعظيم تعجيب"(٢).

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً﴾

١- تدل (ثم) هنا أن شق الأرض متأخر عن صب الماء زماناً يحسن معه ذكر (ثم) دون (الفاء)، وقد يكون الماء هو سبب الشق عند اختلاطه بالتربة، أو إصابته لها، أو يكون بفعل الإنسان.

(١) تفسير أبي السعود - (ج ٦ / ص ٤٦٣).

(٢) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١١٤).

٢- ذكر (الشق) بعد الصب يدل على ضرورة الشق لحصول الإنبات، وانتفاع الأرض بالماء النازل.

٣- مجيء الفعل (شقق) فلكون الإدغام دون (شق) مدغماً؛ ربما يكون للإشعار بالتتابع والتوالي.

٤- تعيين المشقوق وكونه (الأرض)، بعد تعيين المصبوب وكونه (الماء) فيه دليل على عظم شأن الأرض في طعام الإنسان.

٥- تأكيد الشق بالمفعول المطلق (شقاً)، يدل على حاجة الإنبات للشق.

﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً﴾

١- مجيء الفاء هنا بخلاف (ثم) فيما سبق للتدليل على أن الإنبات يعقب صب الماء وشق الأرض، وكأن في ذلك إشارة إلى أن الأرض المشقوقة المصبوب عليها الماء يسرع إنباتها، حتى لكأنها تكون عقبه، يقول أبو السعود: "والفاءُ في قولِه تعالى. {فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً} فإنَّ الشقَّ بالمَعْنى المذكور لا ترتبَ بينَهُ وبين الأمطارِ أصلاً، ولا بينَهُ وبينَ إنباتِ الحبِّ بلا مُهلةٍ. وإنَّما الترتيبُ بين الأمطارِ وبينَ الشقِّ بالنبات على التراخِي المعهودِ، وبين الشقِّ المذكورِ وبينَ إنباتِ الحبِّ بلا مُهلةٍ، فإنَّ المرادَ بالنبات ما نبتَ من الأرضِ إلى أنْ يتكاملَ النموُّ، وينعقدَ الحبُّ، فإنَّ انشقاقَ الأرضِ بالنباتِ لا يزالُ يتزايدُ، ويتسعُ إلى تلكَ المرتبةِ على أنَّ مساقَ النظمِ الكريمِ لبيانِ النعمِ الفائضةِ من جنابِه تعالى على وجهٍ بديعٍ خارجٍ عن العاداتِ المعهودةِ، كما ينبئُ عنه تأكيدُ الفعلينِ بالمصدرينِ فتوسيطُ فعلِ المنعمِ عليهِ في حصولِ تلك النعمِ مخلٌّ بالمرامِ"[1].

٢- إسناد الإنبات إلى الله دون أن يقال: (فنبت فيها حباً) للفت النظر أن ذلك كله يتم بأمر الله سبحانه.

٣- ذكر الإنبات هنا دون الإخراج الذي ذكر في مواطن أخرى، لأنه أكثر ارتباطاً بالنبات، وما ذكر فيه الإخراج يراد منه مجرد الخروج لا النمو، وغالباً ما يذكر في مواطن الاستدلال.

---

(١) تفسير أبي السعود - (ج ٦ / ص ٤٦٣).

٤- تعدية الفعل (أنبت) بـــ(في) دون (منها) للإشعار بأن الإنبات حصل داخل الأرض، ولعل هذا هو السر في ذكر الإنبات بالفاء، فلعل الإنبات يحصل بمجرد نزول الماء على الأرض المشقوقة، فيكون ما تحت الأرض إنباتاً، وما فوقها إخراجاً.

٥- ذكر المفعول وتحديده بالحب (حباً) فيه مزيد اهتمام بأمر الحَب خصوصاً؛ لأنه ذكر أولاً في طعام الإنسان، وما يزال (القمح) -وهو من الحبوب- هو قوام طعام الإنسان منذ القدم وحتى اليوم.

٦- ومجيء (حباً) منكرة لتشمل كل أصناف الحبوب التي يأكلها الإنسان.

﴿وَعِنَباً وَقَضْباً﴾

١- عطف العنب على الحب وذكره بعده لأنه فاكهة، وبهذا ندرك أنه أهم أنواع الفاكهة، والعنب "فاكهة في حال عنبيته، وقوت باتخاذه زبيباً، ودبساً، وخلاً، ولما كان لذلك في بيان عجائب الصنع ليدل على القدرة على كل شيء فيدل على القدرة على البعث؛ فذكر ما إن أخذ من منبته قبل بلوغه فسد، وإن ترك اشتد وصلح للادخار، واتبعه ما إن ترك على أصله فسد، وإن أخذ وعولج صلح للادخار ، أتبعه ما لا يصلح للادخار بوجه فقال : ﴿وقضباً﴾، وهو الرطب من البقل وغيره، وهو يزيد على الماضيين بأنه فيه ما هو دواء نافع، وسم ناقع، وبأنه يقطع مرة بعد أخرى فيخلف"(١) .

٢- "﴿وَقَضْباً﴾ أي: رطبة، سُميتْ بمصدرِ قضَبهُ، أي: قطَعهُ؛ مبالغةً كأنَّها لتكرر قطعِها، وتكثرِه نفسُ القطعِ"(٢).

٣- ذكر القضب هنا، وهو البرسيم وهو علف للدواب يظهر علاقة الحيوان بطعام الإنسان، فمأكل الدواب (الأنعام) هو القضب الذي نبت بسبب المطر، وهكذا يعود كل ذلك إلى الماء المذكور أولاً.

﴿وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً﴾

---

(١) نظم الدرر للبقاعي - (ج ٩ / ص ٣٤٠).

(٢) تفسير أبي السعود - (ج ٦ / ص ٤٦٤).

١- الجمع بين الزيتون والنخل أنهما فاكهتان مختلفتان في الزمان والمكان، فالزيتون فاكهة شتوية، والنخل فاكهة صيفية، والزيتون يثمر بالبرودة، فمناطقه باردة، والنخل يثمر بالحرارة، فمناطقه حارة، والزيتون يميل إلى الحموضة والملوحة، والنخل يميل إلى الحلاوة، فهما متضادان، لذا هما متعادلان.

٢- "ذكر النخل دون ثمرته، وهو التمر، خلافاً لما قُرن به من الثمار والفواكهِ والكلأ، لأن منافع شجر النخيل كثيرة لا تقتصر على ثمره، فهم يقتاتون ثمرته من تمر ورُطب وبُسر، ويأكلون جُمَّاره، ويَشربون ماء عود النخلة إذا شُق عنه، ويتخذون من نَوى التمر علفاً لإبلهم، وكل ذلك من الطعام، فضلاً عن اتخاذهم البيوت والأواني من خشبه، والحُصُر من سَعَفه، والحبالَ من لِيفه. فذِكْرُ اسم الشجرة الجامعة لهذه المنافع أجمع في الاستدلال بمختلف الأحوال وإدماج الامتنان بوفرة النعم، وقد تقدم قريباً في سورة النبأ"[١].

﴿وَحَدَائِقَ غُلْباً﴾

١- ذكر الحدائق يثير البهجة في النفوس، وفيها من الدلالة على أن مناظر الحدائق وبهجتها مما يؤثر في الطعام، فيجعله عند ذائقه أطعم وأطيب، ولهذا يخرج الناس كثيراً للحدائق والمنتزهات والبراري لأجل ذلك.

٢- "والحدائق: جمع حديقة، وهي الجنة من نخل وكَرْم وشجرِ فواكهَ، وعطفُها على النخل من عطف الأعم على الأخص، ولأن في ذكر الحدائق إدماجاً للامتنان بها، لأنها مواضع تنزههم واختراقهم"[٢].

٣- ذكر الحدائق بالجمع يوحي بكثرتها وتنوعها وتعددها، وربما ذلك عائد إلى أنواع المذكورات سابقاً.

٤- وصف الحدائق بـــ(غلباً) دليل على عظم شجرها وكثرتها، ولم يَرد هذا الوصف (غلباً) إلا في هذا الموضع من القرآن، يقول ابن عاشور: "والغُلْب: جمع غلباء، وهي

---

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١١٥).

(٢) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١١٥)، ويقول في موضع آخر: "وخصت الحدائق بالذكر لأنها مواضع التنزه والاختراف، ولأنها تجمع أصنافاً من الأشجار".

مؤنث الأغلب، وهو غَليظُ الرقبة،... يوصف به الإنسان والبعير، وهو هنا مستعار لغلظ أصول الشجر، فوصف الحدائق به؛ إما على تشبيه الحديقة في تكاثف أوراق شجرها والتفافها بشخص غليظ الأوداج والأعصاب فتكون استعارة،... [وذلك بـــ]تشبيه كل شجرة بامرأة غليظة الرقبة، وذلك من محاسن الحدائق؛ لأنها تكون قد استكملت قوة الأشجار، كما في قوله: ﴿وجنات ألفافاً﴾ [النبأ: ١٦]"[(١)].

ولعل في ذكر الزيتون والنخل إشارة إلى مالا يفسد على أمه، أو بعد القطاف[(٢)].

﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾

١- جاء ذكر الفاكهة في آخر هذه القائمة، مع أن كثيراً مما سبق يدخل فيها ليكون هناك توافق بين بداية هذه المطعومات (الحب) الغذاء الأساسي والفاكهة المشعر بالرفاهية والنعيم.

٢- "عطف (الأبّ) على الفاكهة مع أنه خاص بالبهائم، للإشعار بأهمية غذاء (الأنعام)، وأنه في النهاية غذاء للإنسان، و(الأب) هو التبن، أو كل ما نبت مما ترعاه الأنعام[(٣)]،

---

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١١٥).

(٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي - (ج ٩ / ص ٣٤٠).

(٣) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١١٥)، "روي أن أبا بكر الصديق سُئل عن الأبّ. ما هو؟ فقال. «أيُّ سماءٍ تُظلني، وأيُّ أرض تُقلّني إذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به» وروي أن عمر بن الخطاب قرأ يوماً على المنبر: ﴿فأنبتنا فيها حباً﴾ إلى { وأبّاً } فقال: كلّ هذا قد عرفناه فما الأبّ؟، ثم رفع عصا كانت في يده، وقال: هذا لعمر الله هو التكلف، فما عليك يا ابن أمّ عمر أن لا تدري ما الأبّ، ابتغوا ما بُيّن لكم من هذا الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فَكِلوه إلى ربه» وفي «صحيح البخاري» عن عُمر بعض هذا مختصراً.

والذي يظهر لي في انتفاء علم الصديق والفاروق بمدلول الأبّ وهما من خُلّص العربِ لأحد سببين: إما لأن هذا اللفظ كان قد تنوسي من استعمالهم، فأحياه القرآن لرعاية الفاصلة، فإن الكلمة قد تشتهر في بعض القبائل، أو في بعض الأزمان وتُنسى في بعضها، مثل اسم السِّكين عندَ الأوس والخزرج، فقد قال أنس بن مالك. «ما كُنَّا نَقول إلا المُدْية، حتى سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر أن سليمان عليه السلام قال. " ائتوني بالسكين أقْسِمْ الطفْلَ بينهما نصفين ".

وهو لم يرد في القرآن إلا في هذا الموضع، ويقول أبو السعود: " أي: مَرْعى، من أبَّه إذَا أمَّه، أي: قصَدُه لأنَّه يُؤمُ ويُنتجعُ، أو منْ أبَّ لكذَا إذا تهيأَ له، لأنَّه متهيئ للرَّعِي، أو فاكهةً يابسةً تؤبُ للشتاءِ"[1].

﴿مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾

١- في هذا الكلام التفات، حيث كان الحديث عن الغائب، والآن عن المتكلم، وعلى هذا يكون "الالتفاتُ لتكميل الامتنانِ"[2]

٢- ذكر مادة المتاع (متاعاً) يدل على عظم المنة من الله على خلقه بهذا الطعام، وأنه صورة من صور التمتع.

٣- ذكر الجار والمجرور (لكم)؛ لبيان أن ذلك النعيم موجه لكم في المقام الأول.

٤- عطف و(لأنعامكم) دليل على أن الأنعام أيضاً لها متاع بذلك الطعام الخاص بها.

٥- ذكر الأنعام وطعامها أكثر من مرة يدل على ضرورة الاهتمام بها، وبطعامها.

﴿فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ﴾

١- إذا هنا تشعر بالمفاجأة، ونجد في هذه الجملة نقلة عظيمة، فقد كان الحديث عن المتاع (متاعا لكم ولأنعامكم)، وفجأة يتحول الحديث عن مجيء الصاخة، هذا كله يصور سرعة حدوثها، وضرورة التأهب لها، وفي هذا من هز مشاعر المخاطب مالا يخفى.

٢- مجيء الفاء هنا دون غيرها للتدليل على الترتيب والتعقيب، مما يشير إلى السرعة والمفاجأة أيضاً.

وإما لأن كلمة الأبّ تطلق على أشياء كثيرة، منها النبت الذي ترعاه الأنعام، ومنها التبن، ومنها يابس الفاكهة، فكان إمساك أبي بكر وعمر عن بيان معناه لعدم الجزم بما أراد الله منه على التعيين، وهل الأبّ مما يرجع إلى قوله. { متاعاً لكم } أو إلى قوله. { ولأنعامكم } في جمْع ما قُسِّم قبله".

(١) تفسير أبي السعود - (ج ٦ / ص ٤٦٤).

(٢) تفسير أبي السعود - (ج ٦ / ص ٤٦٤).

٣- ذكر مادة (المجيء) (جاءت) فيه تصوير لهولها، حتى لكأنها في مكان، ثم تجيء منه تغشى الناس.

٤- ذكر مادة (الصخ) هنا (الصاخة) لأنها تتناسب مع ذكر المتاع قبلها، فهو يوحي بالنعيم والترفع المؤدي – غالباً – إلى الغفلة، ولا يمكن أن ينتبه من هذا حاله إلا بحدث عظيم يجبره أن يصيخ إليه أي يستمع، وقيل هي من الصخ: أي الصمم، ومنه الصخ الذي هو الصك.

٥- وذكر القيامة بهذا الاسم(الصاخة) في هذا الموطن خصوصا فيه لطيفة جميلة، وبيان ذلك أن الأحوال المذكور سابقا كلها تدور حول النعيم والرخاء، وخصوصا ما يتعلق بالطعام الذي هو ملهاة الإنسان، ومن يكون هذا حاله، يكون في الغالب لاهيا، ولا ينبهه إلا الصوت القوي الذي هو الصخ.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾

١- هذا تفصيل لشأن تلك الصاخة، وتبين لأمرها وكنهها، وذلك يوصف تأثيرها على الناس.

٢- ذكر كلمة (يوم) يشعر بالعناية بالزمن.

٣- ذكر مادة الفرار (يفر) لتصوير شدة الهول، وذلك لأن الفرار هو الهروب للتخلص من مُخيف[١].

٤- "حرف (من) هنا يجوز أن يكون بمعنى التعليل الذي يُعدّى به فعل الفرار إلى سبب الفرار حين يقال. فَرّ من الأسد، وفرّ من العدو، وفرّ من الموت، ويجوز أن يكون بمعنى المجاوزة مثل (عن)"[٢]، أي: يتركه ويتجاوزه، ولا يساعده.

٥- في قوله تعالى (المرء) دون الإنسان المذكور سابقاً، قد يكون مناسبة ذلك أن المرء من المروءة، والفرار لا يليق بذوي المروءة، لكن أهوال ذلك اليوم أعظم من أن يتحملها ذلك المرء، فيهرب حتى من أخيه.

٦- دخول (من) على أخيه مشعر بأن سبب الفرار هو الأخ، أي أن موجب الفرار هو الأخ، وهو في العادة سبب النصرة.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١١٧).

(٢) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١١٧).

٧- ذكر الأخ أولاً سيأتي بيانه.

٨- "وقد اجتمع في قوله: ﴿يوم يفر المرء من أخيه﴾ إلى آخره أبلغ ما يفيد هول ذلك اليوم، بحيث لا يترك هوله للمرء بقية من رشده، فإن نفس الفرار للخائف مسبة فيما تعارفوه لدلالته على جبن صاحبه، وهم يتعيرون بالجبن، وكونَه يترك أعز الأعزة عليه مسبة عظمى"[١].

﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾

١- جمع الأم مع الأب لوضوح التناسب بينهما فهما الوالدان ومرتبتهما متقاربة.

٢- تقديم الأم على الأب لميزتها، وعظم شأنها بالنسبة لأولادها، ولأن ابنها أكثر شفقة عليها لضعفها، ومع هذا هو يفر منها، ولا ينصرها.

﴿وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾

١- جمع الصاحب مع البنين لما بينهما من التوافق والتقارب.

٢- ذكر الزوجة بلفظ (الصاحبة) لما في الصحبة من النصرة، فناسب هذا اللفظ هذا الموقف، يقول ابن عاشور: "وإنما ذُكرتْ بوصف الصاحبة الدال على القرب، والملازمة دون وصف الزوج؛ لأن المرأة قد تكون غير حسنة العشرة لزوجها فلا يكون فراره منها كناية عن شدة الهول، فذكر بوصف الصاحبة"[٢].

٣- ذكر الأبناء بهذا اللفظ دون أولاد مثلاً، لأن الموقف ليس للتناسل والتكاثر، بل هو للعون والتناصر، والبنوة هنا آثر، وأكثر دلالة،"وكون أقرب الناس للإِنسان يفرّ منهم يقتضي هولَ ذلك اليوم، بحيث إذا رأى ما يحل من العذاب بأقرب الناس إليه توهم أن الفرار منه يُنْجِيه من الوقوع في مثله، إذ قد علم أنه كان مماثلاً لهم فيما ارتكبوه من الأعمال، فذكرت هنا أصناف من القرابة، فإن القرابة آصرة تكون لها في النفس معزة وحرص على سلامة صاحبها وكرامته، والألفُ يحدث في النفس حرصاً على الملازمة والمقارنة، وكلا

---

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١١٨).

(٢) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١١٨).

هذين الوجدانين يصد صاحبه عن المفارقة، فما ظنك بهول يغْشَى على هذين الوجدانين، فلا يَترك لهما مجالاً في النفس"[1].

٤- "وأطنب بتعداد هؤلاء الأقرباء دون أن يقال: يوم يفر المرء من أقرب قرابته مثلاً لإحضار صورة الهول في نفس السامع"[2].

٥- "ورتبت أصناف القرابة في الآية حسب الصعود من الصنف إلى من هو أقوى منه تدرجاً في تهويل ذلك اليوم، فابتدِئ بالأخ لشدة اتصاله بأخيه من زمن الصبا، فينشأ بذلك إلف بينهما يستمر طول الحياة، ثم ارتُقي من الأخ إلى الأبوين، وهما أشد قرباً لابْنيهما، وقدمت الأم في الذكر لأن إلْفَ ابنها بها أقوى منه بأبيه وللرعي على الفاصلة، وانتقل إلى الزوجة والبنين، وهما مُجتمع عائلة الإنسان، وأشد الناس قرباً به وملازمة"[3].

٦- الذي جرى عليه أكثر المفسرين أن هذا الترتيب جاء من الأبعد ثم تدرج إلى الأقرب، بينما جاء عكس ذلك في المعارج: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ، وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾[المعارج:١٣]، والذي يظهر لي أن ما ذكر في السورتين جاء بتقديم الأهم كل في موضعه، فهنا جاء تقديم الأخ؛ لأن المقام مقام نصره، وهو الأهم فيها، كما قال مسكين الدارمي:

أخاك أخاك إن من لا أخا له كساع إلى الهيجا بغير سلاح

وقد بكت الخنساء أخاها صخراً مالم تبك غيره، فقيل لها في ذلك، فقالت: الابن مولود، الزوج موجود، والأخ مفقود.

أما في سورة المعارج فالمقام مقام افتداء، لذا جاء تقديم أصعب ما يفتدي به الإنسان وهو ابنه.

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾

١- الجار والمجرور (لكل وما بعده) خبر مقدم، والمبتدأ هو (شأن)، وهو مؤخر، وهذا التقديم يشعر بالاهتمام بسبب ذلك الفرار الذي حصل منهم جميعاَ.

---

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١١٧).

(٢) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١١٧).

(٣) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١١٧).

٢- ذكر كلمة (كل) للدلالة على أن ذلك يشملهم جميعاً.

٣- تكرار كلمة (امرئ) لما ذكرنا سابقاً.

٤- تحديد الزمان بـــ(يومئذ) لبيان أن تلك الحالة غير مألوفة، وأنها لا تحدث إلا في ذلك الموقف لشدته وهوله.

٥- ذكر (من) في (منهم) لتحديد كل فرد منهم على حدة، ليكون هذا الوصف خاصاً به منفرداً، وذكر (منهم) يشعر بأن هذه الأصناف هي المعهود منها التناصر، ومع ذلك كان منهم ذلك، وأما من غيرهم فقد يكون ذلك حاصلاً في غير هذا الموقف.

٦- تدل كلمة (شأن) على الانشغال، وأن كلاً منهم له ما يهمه ويشغله عن غيره.

٧- وفي كلمة (يغنيه) المذكور معها مادة الغنى ما يشير إلى عدم اهتمام الإنسان يومئذ بغيره، لأنه يستغن عن ذلك باهتمامه بنفسه.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾

١- هنا شروع بيان أحوال الناس بعد القضاء، "وقدم هنا ذكر وجوه أهل النعيم على وجوه أهل الجحيم خلافَ قوله في سورة النازعات (٣٧): ﴿أما من طغى﴾، ثم قوله: ﴿وأما من خاف مقام ربه﴾[النازعات: ٤٠] إلى آخره، لأن هذه السورة أقيمت على عماد التنويه بشأن رجل من أفاضل المؤمنين، والتحقير لشأن عظيم من صناديد المشركين، فكان حظ الفريقين مقصوداً مسوقاً إليه الكلام، وكان حظ المؤمنين هو الملتفت إليه ابتداء، وذلك من قوله: ﴿وما يدريك لعله يزكى﴾ [عبس: ٣] إلى آخره، ثم قوله: ﴿أما من استغنى فأنت له تصدى﴾ [عبس: ٥، ٦].

٢- "وأما سورة النازعات فقد بُنِيت على تهديد المنكرين للبعث ابتداء من قوله: ﴿يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة﴾ [النازعات: ٦،٨]، فكان السياق للتهديد والوعيد، وتهويل ما يلقونه يوم الحشر، وأما ذكر حظ المؤمنين يومئذ فقد دعا إلى ذكره الاستطراد على عادة القرآن من تعقيب الترهيب بالترغيب"[1].

٣- ذكر الوجه هنا مناسب لأول السورة التي ذكرت العبوس الذي هو أحد صور دلالات الوجه.

---

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١١٨).

٤- ناسب ذكر الوجه الموقف، لأنه يظهر فيه السرور أو الحزن، ومظهر ذلك كله يكون في الوجه.

٥- جمع كلمة (وجوه) للتدليل على الكثرة من جهة، وعلى أن استبشارها متشابهة من جهة أخرى.

٦- "تنكير ﴿وجوه﴾ الأول والثاني للتنويع، وذلك مسوغ وقوعهما مبتدأ"[1].

٧- ذكر الزمن (يومئذ) فيه عناية بوقت ذلك الإسفار.

٨- ذكر الخبر هنا بمادة الإسفار (مسفرة) مناسب لما ذكر سابقاً من الإسفار مع القرآن وآياته (مسفرة)، فكأنه قيل: من أخذ بنور ذلك القرآن في الدنيا أسفر وجهه في الآخرة.

٩- إفراد الخبر (مسفرة) مع جمع المبتدأ (وجوه) فلم يكن (مسفرات)؛ لأن ذلك مما تجيزه اللغة، وفوق ذلك فيه دلالة أن إسفار وجوههم على تعدده كأنه إسفار وجهٍ واحد، لأن مصدر النور واحد.

﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾

١- جمع الوصفين (الضحك والاستبشار) يشعر بأنهما مرتبطان، وهذا من النعيم، لأن الضحك قد يكون مؤقتاً، يعقبه حسرات وحزن، أما هؤلاء مع ضحكهم يكونون مستبشرين بالقادم.

٢- ذكر وصف الضحك للوجوه مع أن الضاحك هو صاحبها؛ لأنها موطن ذلك، فالضحك يظهر في الوجه، وذلك دليل عظم السرور.

٣- ذكر الضحك دون التبسم مثلاً للتدليل على عظم النعيم الذي يشاهدونه، حتى إنه ليتجاوز بهم التبسم إلى الضحك.

٤- ذكر الاستبشار للإشعار باستمرار السرور.

٥- عدم دخول العاطف (الواو) بين الكلمتين فلم يكن (ضاحكة ومستبشرة)؛ للإشعار بأن الضحك والاستبشار وقعاً في لحظة واحدة، وأنهما مجتمعان لا يفترقان، ولو قيل (ضاحكة ومستبشرة) لربما أشعر ذلك بانفصال إحداهما عن الأخرى.

٦- يتضح مما سبق أن أوصاف (أخبار) الوجوه ثلاثة: الإسفار، الضحك، الاستبشار.

---

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١١٩).

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾

١- هذا ما يقابل وجوه المؤمنين، وهو ما يخص وجوه الكافرين، "يعلم ذلك من سياق هذا التنويع، وقد صرح بذلك بقوله: ﴿أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ زيادة في تشهير حالهم الفظيع للسامعين"(١)، وفي هذا التقابل من إظهار البون الشاسع بين الفريقين مالا يخفى.

٢- ذكر الوجوه معهم للإشعار بتباين الحال بين الوجوه.

٣- تحديد الزمن (يومئذ) للعناية بالزمن، وليكون ذلك أدق في الموازنة بين الفريقين، فالزمان واحد، والحال مختلفة.

٤- (عليها) جار ومجرور خبر مقدم، يشعر بالاهتمام ببيان ما يعلو تلك الوجوه.

٥- ذكر (على) دليل أن تلك الوجوه علاها ما لم يكن من جنسها، حتى لكأنها من جهامتها قد علاها الغبار.

٦- ذكر (الغبرة) خصوصاً لما فيها من دلالة القتامة في مقابل الاستبشار، ولما فيها من دلالة الحزن في مقابل (الضحك)، ولما فيها من دلالة الذل والضعف في مقابل (الاستبشار)، و لم يرد هذا الوصف (غبرة) في القرآن إلا في هذا الوضع.

﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾

١- ذكر مادة الرهق هنا تشعر بالتعب والنصب، إضافة إلى دلالة العلو والغشيان.

٢- ذكر مادة (القتر)؛ تدل على شدة السواد والظلمة، فإذا كان المؤمنون يترقّون في النور، إسفار وضحك واستبشار فهؤلاء، من غبرة إلى قترة.

﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾

١- لا نجد عند المؤمنين إشارة إليهم، لأن أوصافهم معلنة عن ذواتهم، وذلك غاية المدح لهم، أما هؤلاء فلأن المقام للتذليل، فناسب أن يشار إليهم بعد تلك الصفات المخزية بالبعيد ليتقرر ويتأكد ذلك لهم، يقول ابن عاشور: "وجيء باسم الإشارة لزيادة الإيضاح تشهيراً بالحالة التي سببت لهم ذلك"(٢).

٢- ضمير الفصل (هم) للتأكيد، وإفادة تقوي الحكم المذكور.

---

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١١٩).

(٢) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١١٩).

٣- في ذكر وصف (الكفر) (الكفرة) تعليل لوصفهم بما وصفوا، وبيان أن الكفر هو ما أوصلهم إلى هذه النتيجة.

٤- مجيء وصف الكفر على هذا الجمع (كفرة) على وزن (فعله) لأنه جمع كثرة، وهذا يدل على كثرتهم، وحتى (كفار) جمع كثرة، ولكن في (كفرة) تناسب مع وصف (بررة) السابق (كرام بررة) ، أي كثيرو البر، وهؤلاء كثيرو الكفر.

٥- "أتبع وصف ﴿الكفرة﴾ بوصف ﴿الفجرة﴾ مع أن وصف الكُفر أعظم من وصف الفجور لما في معنى الفجور من خساسة العمل، فذُكر وصفاهم الدالان على مجموع فساد الاعتقاد وفساد العمل"[١].

٦- "ذكر وصف ﴿الفجرة﴾ بدون عاطف يفيد أنهم جمعوا بين الكفر والفجور"[٢]، لذا جمعوا بين الغبرة والقترة.

وبهذا تم الكلام عن هذه السورة، ولله الحمد والمنة.

د. عويض بن حمود العطوي
جامعة تبوك
Dr.ahha١@gamail.com
www.alatwi.net

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١١٩).

(٢) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١١٩).